

" الحياء "

إن الحياء خلق الإسلام ، وطبع إيماني ، وهو أمانة صادقة على طبيعة الإنسان ، فهو يميّط اللثام عن صدق إيمانه ، ومقدار أدبه ، فإذا ما رأيت مسلماً يتملكه الحياء فاعرف على الفور أنه يملك إيماناً صادقاً ، وضميراً حياً يقظاً . ولذا يقول النبي - ﷺ - : " إن لكل دين خلقاً ، وخلق الإسلام الحياء " (١) . وقد كانت الصرامة ملحوظة في تعاليم اليهودية على عهد " موسى " - عليه السلام - ، وكانت السماحة ملحوظة في تعاليم المسيحية على عهد " عيسى " - عليه السلام - . وقد تميز الإسلام بالحياء .

يقول " ابن القيم " :

هب البعث لم تأتتا رُسُلُه وجاحمة النار لم تُضرم
أليس من الواجب المستحق حياءُ العباد من المنعم ؟ (٢)

والقدوة في ذلك سيدنا " محمد " - ﷺ - . فعن " أبي سعيد الخدري " - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - ﷺ - أشد حياءً من العذراء في خدرها ، وكان إذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه " (٣) . وقال رسول الله - ﷺ - : " الحياء والإيمان قرنا جميعا ، فإذا رُفِعَ أحدهما ، رفع الآخر " . والعلة في ذلك أن المرء حين يفقد الحياء يتدرج من سيء إلى أسوأ ويهبط من رذيلة إلى أرذل ولا يزل يهوى حتى ينحدر إلى الدرك الأسفل ، وقد روى عن رسول الله - ﷺ - هذا الحديث الذي يكشف فيه عن مراحل هذا السقوط الذي يبندئ بضياع الحياء ، وينتهي بشر العواقب قال : " إنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياءَ فإذا نزع منه الحياءَ لم تلقه إلا مقبباً مُمقَّباً فإذا لم تلقه إلا مقبباً مُمقَّباً نزعته منه الأمانة فإذا نزعته منه الأمانة لم تلقه إلا خائناً مُحوناً فإذا لم تلقه إلا خائناً مُحوناً نزعته منه الرحمة فإذا نزعته منه الرحمة لم تلقه إلا رجيماً مُلعناً فإذا لم تلقه إلا رجيماً مُلعناً نزعته منه ربة الإسلام " (٤) . فاذا نزع الحياء من المسلم لا يؤتمن على شيء إنه لا يؤتمن على مال ، ولا عرض ، ولا على موعد ، أو عهد ، أو ميثاق ،

1 - رواه الامام " مالك " .

2 - جامحة النار يريد جهنم . تضرم أى توقد ، رواه الحاكم .

3 - رواه مسلم .

4 - رواه ابن ماجه .

أوعلى حفظ وديعة أوأمانة ، وتحقيق مطامعه ، وملذاته ، ويوم يبلغ الإنسان هذه المراحل يكون بذلك قد أفلتت من قيود الدين ، وانزعج من ريقة الإسلام .

فالحياء خير كله . ومن ذلك قول الحق - سبحانه وتعالى - في هذا الخلق الكريم :

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِئِجِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٢٣].

والمعنى : فأجأها المخاض وألم الطلق ، وشدة الولادة إلى ساق نخلة يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ، فقالت السيدة الفضلى " مريم بنت عمران " : يا ليتني مت قبل هذا اليوم وكنت شيئاً تافهاً لا يعرف ولا يذكر وهذا القول لابن عباس ، وقتادة - رضى الله عنهم - ويعنى " يا ليتني متت " . لم أخلق ولم أك شيئاً . يقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى " : " عرفت السيدة الفضلى " مريم بنت عمران " أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خيرها وأنها حملت دون أن تقترب إثمًا ، أو ترتكب منكراً ، أو تجترح سيئة ، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية . ولذلك صدر منها هذا القول : " يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً " . أي قبل هذا الحال أي لم أخلق ولم أك شيئاً . ولذلك أخذت المكان القاصى النائى والبعيد حياءً من قومها ، ولا غور فهى من سلائل بيت النبوة ولأنها استشعرت منهم الاتهام والريبة والشك ، فرأت أن لا تراهم ، وأن لا يروها حياءً منها وأدباً ، وخوفاً من توجية اللوم إليها .

ويقول " صاحب اللطائف " : " أَلَجَّأَهَا وَجَعُ الْوَلَادَةِ إِلَى الْاعْتِمَادِ إِلَى جِئِجِ النَّخْلَةِ . وَلَمَّا أَخَذَهَا الطَّلُوقُ ، وَبَاخَلَهَا الْحَجَلُ مِنْ قَوْمِهَا تَطَقَّتْ بِلِسَانِ الْعَجْزِ ، وَقَالَتْ : " قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا " . ويقال يحتمل أنها قالتها إشفاقاً من قومها ، لأنها علمت أنهم سيبسطون لسان الملامة فيها بلسان الفجر؛ وينسبونها إلى الفحشاء . ويقال قالتها شفقة على قومها لئلا تُصيَّبهم بسببها عقوبة . ويقال قالت : " يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا " حتى لم أسمع من قال في الله تعالى بسببي إن " عيسى " ابن الله وابن مريم ، وإن مريم زوجته ... تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !

ويقال " يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا " : في الوقت الذي كنت مرفوقاً بي ، ولم تستقبلني هذه الخشونة في الحالة التي لحقتني . ويقال " يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا " : في الوقت الذي لم يكن قلبي متعلقاً بسبب . وفي قوله " فأجأها المخاض " . يقال : جاء ، وأجاء لغتان والمعنى واحد والأصل في " جاء " أنه يتعدى بنفسه للواحد و " أجاء " يتعدى لأنين لأن استعماله قد تغير بعد النقل فصار بمعنى " أَلَجَّأَهَا إِلَى كَذَا " . وقيل إن مريم - عليها السلام

حين اتكأت إلى جزع النخلة اليابسة أخضر، أطلع الجريد والخص ، والتمر رطباً في وقت واحد . كما أن حمل عيسى وولادته وتصويره في وقت واحد .

والمشهور أن ولادة - عيسى عليه السلام - كانت في " بيت لحم " وأنها لما هربت وخافت عليه أسرعته إلى "بيت المقدس" ، فوضعت على صخرة فانخفضت الصخرة له وصارت كالهد وهي الآن موجودة بدار " مجرم بيت المقدس " ، ثم بعد أيام توجهت به إلى " بحر الأردن " فغمسته فيه . وهو اليوم الذي يتخذه النصارى عيداً ويسمونه " عيد الغطاس " ، وهم يظنون أن المياه في ذلك اليوم تقديست ، فلذلك يغطسون في كل ماء . ومن زعم أنها ولدت في مصر " بكورة " يعنى ببلد " أهناس " فلم يثبت ذلك . و" أهناس " هي المسماة بالبهنسا " وقيل " أهناس " قرية بجانب البهنسا وجوارها .

وإن الاستحياء أنساها بشارة الملائكة بسيدنا " عيسى " - عليه السلام - لذلك تمت الموت . وقد اختلف المفسرون في فترة حمل عيسى - عليه السلام - . فالجمهور أنها حملت به تسعة اشهر . ويقول عكرمة - رضى الله عنه - أى مدة الحمل ثمانية أشهر ، قال : " لهذا لا يعيش ولد الثمانية أشهر . وسئل " ابن عباس - رضى الله عنهما - عن حمل " مريم " فقال : " لم يكن إلا أن حملت فوضعت . وكان معها فى المسجد رجل صالح من أقاربها يقال له " يوسف النجار " ، فقال لها : " يا مريم ، إنى سائلك عن أمر فلا تعجلي عليّ .

قالت : وما هو؟ قال : هل يكون قَطُّ شَجَرٌ من غير حَبٍّ؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت : نعم - فهمت ما أشار إليه - أما قولك : " هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر؟ " فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ، ولا بذر " وهل خلق يكون من غير أب؟ " . فإن الله قد خلق آدم من غير أب ولا أم . فصدقها ، وسلم لها حالها .

ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة ، انتبذت منهم مكاناً قاصياً ، أي : قاصياً منهم بعيداً عنهم؛ لئلا تراهم ولا يروها . حياءً وهو خلق القرآن الكريم .

وفي الآية جواز تمنى الموت إذا خشى المسلم " الفتنة " واجعل الموت راحة لنا من كل شر . هذا دعاء الصالحين . وذلك مثل قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فِئَاءٌ لَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشَى عَلَى أَسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ رَبِّى أَبِى يُدْعُوكَ لِجِزْيِكَ أَجْرًا مَأْسُومًا لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ ، وَوَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾ [سورة القصص : ٢٥] . يعنى : واضحة كمْ ذراعها على وجهها حياءً منه ، فأجابها في نفسه منكراً أخذ الأجرة ، كأنها قصدت المكافأة إن كان ممن يريدها ، فمشتت بين يديه فجعلت الريح تضرب ثوبها فتكشف ساقها ،

فقال لها: "أمشي خلفي ودايني على الطريق ففعلت إلى أن جاء أباهـا "شعيب" - عليه السلام - وعنده عشاء ، فقال له : "أجلس . فتعشى . قال : أخاف أن يكون عوضا مما سقيت لهما ، وأنا أهل بين لا نطلب على عمل الخير عوضا . قال : "لا" عادتى وعادة ابائى : إكرام الضيف ، وأطعام الطعام ، فأكل وأخبر؛ بحاله ، فلما جاءه ، وقص عليه القصص قال له : " لا تخف فإنه لا سلطان لفرعون على "مدين" . والمراد : بالحياء هنا شدته .

ويقول " ابن كثير " : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ... ﴾ أي : مشي الحرائر ، كما روي عن أمير المؤمنين عمر- رضي الله عنه- أنه قال : كانت مستثرة بكم ذراعها . قال عمر رضي الله عنه : جاءت تمشي على استحياء ، قائمة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع دلاجة ، خرّاجة ، ولاجة . والسلفع من النساء : الجريئة السليطة ، ومن النوق : الشديدة . { ... قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ... } ، وهذا تأدب في العبارة ، لم تطلبه طلباً مطلقاً ، وطلبتة في أدب ، ووجهت الدعوة باسم أبيها حتى لا يوهم ريبة متوهم أنها دعتة لنفسها إعجاباً به وبقوته وشهامته ، ففعلت ذلك دفعا للتهمة والريبة . هذا هو خلق المسلم في القرآن الكريم ، فواجب علينا نحن المسلمين أن نتخلق بأخلاق القرآن وهودستورنا حتى نسعد في جميع حياتنا ، ونكون من الفائزين في الدارين (١) .

ويقول رسول الله - ﷺ - : " الحياء من الإيمان ، والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء في النار" (٢) . وفي الأثر : " ما أحببت أن تسمعه أذنك فأنته ، وما كرهت أن تسمعه أذنك فأجتنبه " . وعن عائشة - رضي الله عنها قالت - أن رسول الله - ﷺ - قال لها : " يا عائشة ، لو كان الحياء رجلاً لكان رجلاً صالحاً ، ولو كان البذاء رجلاً لكان رجل سوء " (٣) . وقد عاب المشركين على الإسلام تحقير الأصنام ، وأنها لا تخلق " ذبابة " فبين الله تعالى أنه الحق أن تهاجم أصنامهم ، وتسب آلهتهم . فقال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦] . فإبراز الأصنام في هذه الصورة من العجز والضعف حق . ﴿ ... وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ... ﴾ [سورة

١- مختصر تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٤٤٨ .

٢- رواه احمد .

٣- رواه الترمذى .

الأحزاب: ٥٣]. وفي سبيل إحقاق الحق لا يتهيب المسلم أحداً ، ولا يخشى بأساً ، ولا يعمل حساباً للأئمة . والحياء في أسمى منازته وأكرمها يكون من الله - عزوجل - فنحن نطعم من خير ، ونتنفس في جوه ، وندرج في أرضه وملكه ، ونستظل بسمائه ، ومع ذلك نعصيه ، والبعض يكفر به وآخر يفسد في الأرض ، ومع ذلك نغمرنا ألوه ، وتغطينا نعمه ويعمنا خيره؛ ورزقه من المهد إلى اللحد . وعن " ابن مسعود " - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ » . قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . قَالَ « لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنْ مَنْ اسْتَحَى مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّاسَ وَمَا حَوَى وَيَحْفَظِ الْبُطْنَ وَمَا وَعَى وَيَذْكَرِ الْمَوْتَ وَالْبَلَى وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحَى مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ » (١) . ويقال : إن هذه العظة للصحابي الجليل " عبد الله بن مسعود " - رضي الله عنهما - نستوعبا الكثير من آداب الإسلام العظيمة ، ومناهج الفضيلة والحياء بهذا الشمول هوالدين كله .

قال رسول الله - ﷺ - : " الإِيمَانُ بَضْعٌ أَوْ بَضْعٌ وَسِتُونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ " (٢) . وفي الأثر : " استحي من الله كما تستحي من أولى الهيبة في قومك " . " الحياء خير كله " (٣) . وقال رسول الله - ﷺ - : " إذا لم تستح فأصنع ما شئت " . (٤)

1- رواه الترمذى .

2- رواه البخارى .

3- رواه مسلم .

٣ - تفسير الطبرى ج ٢٠ ، ص ٣٩ .

□ تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ١١٦ - ١١٧ ، ص ٣٨٤ .

□ تفسير المراغى ج ٦ ، ص ص ٤٤ - ٤٥ ، ج ٧ ، ص ٤٨ .

□ الفتوحات الالهيه وحاشية الجمل ج ٣ ، ص ١٤ - ١٥ - ٢٢ .

□ اللطائف للتشيرى ج ٢ ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

□ مختصر ابن كثير ج ٢ ، ص ٤٤٨ .

□ موطأ " مالك " .

□ صحيح مسلم

□ صحيح البخارى .

□ الحاكم .

□ الترمذى .

□ الطبرى .

□ ابن ماجة .